من باب الخلق إلى شارع ماسبيرو!

محمود عبد المنعم مراد

فى زحام المشكلات التى تشغل الأذهان ، وتتصدى لها الدولة لتتم بناء مجتمع جديد بعد ربع قرن من الانغلاق والتسويف والتواكل ، نسى تطورا رهيبا فى ميدان الثقافة ، طغت عليه المستلزمات المادية للحياة الجديدة ، من إقامة المساكن ، وتوفير الغذاء ، وإصلاح المرافق ، وزحام المدن ، وصراخ ملايين الأطفال الذين تقذف بهم بطون الأمهات ، وقلق مئات الألوف من الراغبين فى الالتحاق بالجامعات ، ومئات الألوف من الخريجين الذين يبحثون عن عمل ، وما حول ذلك وماينتج عنه من قضايا تثير اهتمام الحاكمين والمحكومين معا . وفى ظل ذلك كله ، تتوارى قضايانا الثقافية وتحتجب ، ولا تظفر إلا بآراء متناثرة هنا وهناك ، عن أزمة الكتاب ، وأزمة الشعر ، وحركة الترجمة ، دون وعى شامل بالمتغيرات التى أصابت المجتمع فى النصف الأخير من هذا القرن .

ولست أدعى القدرة على أن أقدم للناس بحثا شاملا واعيا عن مشكلة الثقافة فى عصرنا هذا ، وأسباب تخلفها وتغير أنماطها ، ووسائل معالجة النقص ومواكبة العصر والظروف . ولكنها خواطر مرت بذهنى ، تذكرت خلالها ما كنا فيه منذ ثلاثين أو أربعين عاما ، وما صرنا إليه الآن . كنا وقتذاك ، جيلا بأسره ، نولع بالأدب والقراءة ، ونجد السبيل إليها بأقل التكاليف . كان فى حياتنا شىء هام بارز ، كعبة نحج إليها مرة أو مرتين كل أسبوع . كانت هذه الكعبة هى « دار الكتب المصرية » ، فى مبناها العتيق بميدان باب الخلق كانت هذه الدار موئلنا جميعا ، نذهب لنستعير منها ما نشاء من كتب التراث القديم ، أو الأدب الحديث .

وقد نرى جيلنا هذا على ما قدمته الدار لنا من خدمات . وأذكر أنى ، ولم أكن وحدى ، قد تعلمت الذهاب إلى دار الكتب وأنا فى الثانية عشرة من عمرى . وكنت وزملائى من هواة القراءة والأدب ، نتسابق فى استعارة ما نشاء من كتب ، ونتفاخر بقدرتنا على قراءة واستيعاب أكبر قدر منها فى أقل وقت مستطاع . وما زلت أذكر أنى رأيت الدكتور عبد الرحمن بدوى لأول مرة فى دار الكتب ، يقرأ كتابا ، وكان لا يزال فى دراسته الثانوية . وكنت أعرفه لأنه زميل لأخى الأكبر . وكان يسبقنى فى الدراسة بعامين . وقد خطر لى أن أعرف أى كتاب يقرأه فى قاعة المطالعة بالدار ، فاقتربت منه ، ووجدته يقرأ كتاب « جمهورية أفلاطون » . وكان ذلك كما قلت وهو لا يزال فى دراسته الثانوية ، ولم يكن بعد ذلك بغريب أن يؤلف أكثر من ثلاثين كتابا فى الفلسفة ، تعتز بها المكتبة العربية كل الاعتزاز .

وأتلفت حولى اليوم ، وأحاول أن أعرف ماذا يقرأ أبناؤنا وإخوتنا الصغار ، فى مدارسهم الثانوية أو جامعاتهم ، أو عقب تخرجهم ، فلا أكاد أعرف ماذا يقرأون ، هذا إذا كانت القراءة تخطر لهم على بال .

وكان جيلنا يقرأ ، ويقتنى الكتب إذا استطاع ، ويستعيرها من باب الخلق إذا ضاقت به الموارد ، ويستوعب ما حوته الكتب بدءا من المعلقات السبع ، إلى حيث انتهى الأدب العربى بجيل الرواد الكبار العظماء : طه حسين والعقاد والمازنى وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ومصطفى صادق الرافعى والمنفلوطى وأحمد حسن الزيات .

وبجانب الكتب التى كان يكتبها هذا الجيل من الرواد ، كانت هناك مجلات أدبية واسعة الانتشار ، نقف ساعات ننتظر صدورها لاقتنائها بمجرد وصولها إلى يد الباعة فى الطرقات . كانت هناك المقتطف والهلال والسياسة الأسبوعية ، ومجلة أبوللو ، ثم الرسالة والثقافة وغيرها من المجلات . وفى أواخر الأربعينات ، ظهرت مجلة الكاتب المصرى ، التى كان يرأسها الدكتور طه حسين ، وكانت تمثل مرحلة جديدة من مراحل المجلات الأدبية الجادة والطريفة معا . وتوقفت كل هذه المجلات عن الصدور . وعرفت أسواقنا فى الوقت الحاضر ، مجلات وافدة من السعودية والكويت وقطر والعراق وغيرها من سائر الدول العربية ، بينما تعجز مصر بكل من فيها من كتاب وأدباء ونقاد ، وكل مالديها من امكانيات ، عن اصدار مجلة أدبية تضاهى هذه المجلات .

وكانت فى صحفنا اليومية صفحات أدبية خاصة ، تحفل بالانتاج والابداع الأدبى الفنى ، كما تحفل بالنقد الموضوعى العميق ، وكان لنا قراؤها المنتظرون لما تنشره ما تحويه . وكانت تغذى هذه الحركة الأدبية ، معارك فكرية رفيعة بين كبار الكتاب ، يتتبع القراء حولها شيعا وأحزابا ، يؤيدون هذا ويعارضون ذاك .

فى هذا الجو العام ، نرى جيلنا وتذوق الفن الأدبى ، ولم يقف اطلاعه عند حد الأدب العربى القديم أو الحديث ، بل حملته موجة النهضة الأدبية إلى التطلع نحو آداب الأمم الأخرى ، بفضل مترجمة أو فى لغاتها الأصلية . وكان للعقاد والمازنى وغيرهما دور كبير فى تعريف القارىء المصرى بروائع الأدب الانجليزى ، وكان لطه حسين وغيره ، دورهم فى التعريف بالأدب الفرنسى . ومن خلال هؤلاء ، تعلمنا بطعمها الشخصى كيف نتذوق كثيرا من الآداب الأخرى التى لا نستطيع قراءتها بلغاتها الأصلية ، كالأدب الروسى والألمانى وغيرهما . وهكذا كانت ثقافتنا الأدبية شاملة ، وبهذا القراءة شغفها .

فأين نحن الآن ؟ هل يستطيع أحد أن يدلنى على شاب يتردد على دار الكتب المصرية ، فى مبناها الجديد الواسع على كورنيش النيل ليستعير كتابا أدبيا يقرؤه ؟ هل يستطيع مسئول أن

د. طه حسين

يوافينا باحصائية عن عدد المترددين على دار الكتب المصرية فى باب الخلق سنة ١٩٣٩ ، وعددهم فى عام ١٩٧٩ ؟ اخشى أنها مأساة . ولابد لها من أسباب .

هل يكون بعض السبب راجعا إلى هذا المبنى الكبير فى شارع ماسبيرو ، مبنى الاذاعة والتليفزيون ؟ ان كل من يقرأ صحيفة يومية ، وهم الآن بالملايين ، يعرفون اسم مديرة الاذاعة ، ويعرفون اسم مديرة التليفزيون . فهل يعرف أحد اسم مدير دار الكتب المصرية ، الذى يعمل تحت جناح الهيئة المصرية العامة للكتاب ، التى يرأسها الصديق الزميل الاستاذ صلاح عبد الصبور ، وهو الذى يستمد شهرته لا من رئاسة الهيئة ، بل من أشعاره ودواوينه وترديد اسمه فى الصحف والمجلات والاذاعة والتليفزيون .

ونظرة سريعة إلى صحفنا اليومية ، تضع أصبعك على هذا التطور السريع الخطر . فبعض صحفنا تنشر يوميا صفحة أو صفحتين كاملتين عن برامج الاذاعة والتليفزيون ، بينما تخلو فى معظم أيامها من حديث حول الكتب الجديدة ، أو مقال أدبى خالص ، أو نقد أدبى جاد . هذا بالرغم من أن برامج الاذاعة والتليفزيون تصدر لها خصيصا مجلة أسبوعية كاملة ، بينما لا نجد فى السوق مجلة أدبية واحدة يقبل عليها القراء .

وبالأمس كان النجوم هم نجوم الأدب ، نجوم المقال والقصة القصيرة والمسرحية والرواية والقصيدة . وكان الكلام كثيرا حول من يخلف شوقى فى امارة الشعر ، ومن يتفوق على من فى فن القول . فمن هم نجوم اليوم ؟ إذا كان لا يزال لدينا بضعة أسماء تلمع فى سماء الأدب ، مما لها من ماض ، أو قليل جدا من الحاضر ، وأمل قليل فى المستقبل ، فان هذه الأسماء ، والمستقبل ، لم تعد تعيش على ما تنتجه من كتب ، بل على ما تكتبه فى الصحف ، وما تنتجه لها الفانون من أعمال سينمائية واذاعية وتليفزيونية ، مأخوذة من انتاجهم القديم .

أكل شارع ماسبيرو الجو كله ، وقاسمه الأكلة شارع الصحافة ، أما الكتاب ، فقد دالت دولته ، وصرفنا الزمن ، ولم نعمل لها اليوم حسابا ، ولم نعد له العدة بالدرس والبحث عن الحل .

فالكتاب يجب أن يبقى . ولكن كيف ، هذه هى المشكلة . وعلى القمة الأعلى للثقافة أن يتدارك هذه المأساة . صحيح أن الأوضاع كلها قد تغيرت اليوم عما كانت عليه بالأمس ، وتضاعف سعر الورق عدة أضعاف ، وكذلك تكاليف الطباعة ، وأخطر من ذلك كله ، نضوب الفكر والخلق الفنى الجديد ، ولكنا مع ذلك نستطيع بالدراسة الجادة الشاملة أن نفعل شيئا لانقاذ الكلمة المكتوبة أو المطبوعة ، فى مواجهة الكلمة المسموعة والمرئية على السواء .

ومنذ خمسين عاما أو ما يقاربها ، نبه أديب فرنسى كبير إلى المشكلة التى ستواجه الكتاب فى المستقبل . فقد ظن الكتاب سوف ذ يقابل كتابا

مصطفى كامل

وضعه المرحوم الدكتور محمد مندور بعنوان «دفاع عن الأدب» . والواقع أن الكتاب «دفاع عن الكتب» . وقد تحدثت فيه الكاتب عن الأزمة التي يمر بها الكتاب ، وما ينتظره في المستقبل من أزمات . واقترح لذلك حلولاً ، وصلت في مداها إلى كيفية عرض الكتب في المكتبات ، وترغيب القراء في شرائها ، بتجميلها بالعطر والزهر ، والموسيقى الناعمة ! ! وكان ذلك منذ نصف قرن أو يكاد . ونحن نبدأ اليوم بالحديث عن أزمة الكتاب وأزمة الثقافة بوجه عام !

والمسألة هنا بطبيعتها ليست هينة . لأنها لا تنحصر في قطاعها الخاص ، وتنطوي على نفسها ولكنها جزء من كل . والكل هنا يشمل نظام التعليم والحالة الاقتصادية ، ووسائل الإعلام والتثقيف الحديثة ، وانتشار الصحف اليومية . وأنماط السلوك الجديدة في تمضية أوقات الفراغ . إلى غير ذلك كله من عوامل تؤثر على رواج الكتاب ، وانصراف الكتاب والأدباء والمفكرين عن التأليف .

فهل آن الأوان لكي نفكر في تقريب المسافة بين باب الخلق وشارع ماسبيرو . بحيث لا تطغى وسائل التثقيف الجديدة على أصول الثقافة وحافظ التراث وسجل التاريخ العزيز على الفؤاد منذ أقدم العصور إلى الأبد ألا وهو الكتاب ؟

فن الخطابة

الخطابة فن من فنون الأدب ، عرفه العرب كما عرفته الأمم الأخرى من قديم الزمن . ووصلتنا نماذج من هذا الفن ، غاية في الروعة والجمال . ولعلنا جميعا نذكر خطبة طارق بن زياد عندما نزل إلى شاطئ الأندلس فاتحا . فخطب في جنده يستحثهم على التضحية والاستبسال في القتال قائلا : «إن البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا النصر أو الموت . . .» أو كما قال .

وفي تاريخ مصر الأدبي عصور زاهية في هذا الميدان . ولعلها بدأت بالثورة العرابية حيث صال السيد عبد الله النديم وجال ، وحرض الشعب والجند . فقد كان أحمد عرابي يصحبه إلى ميادين القتال . ليخطب ويستحث الهمم . ثم جاء عصر الكفاح ضد الانجليز ، فكان مصطفى كامل خطيبا . ثم كان سعد زغلول من جهرة

عباس العقاد

الخطباء ، وكلامه محفوظ في الكتب وفي الصدور . وساعده على ذلك ثقافته الأزهرية الأولى ، فأحسن الكلام وأجاد إثارة الجماهير وبعده جاء نفر من تلاميذه كان من أشهرهم مكرم عبيد . ورغم أنه كان مسيحيا ، فإنه كان يستشهد بآيات من القرآن الكريم ، ويزخرف خطبه بالعربية الفصحى . فكان له حشد كبير من السامعين

وبعيدا عن الخطابة الدينية التي تحتمها شعائر الدين ، لم يعد في مصر الحديثة ذكر لهذا الفن الأدبي ، واندثر تماما ، وأصبح نسيا منسيا لا يذكره الذاكرون . وقبيل الثورة ، خلال الأربعينات ، نشأت طبقة من الخطباء الشبان تدربوا على هذا الفن خلال اجتماعاتهم السياسية ، ومظاهراتهم وندواتهم في الجامعات وفي الشوارع . وكانت هذه هي آخر مدارس الخطابة في مصر . إذ أنه عندما جاءت ثورة ٢٣ يوليو ، لم تشعر بأنها في حاجة إلى خطباء بل إنها على العكس من ذلك تبنت شعارا جديدا هو «انتهى عصر الكلام» . ولم تكن في حاجة إلى استثارة الجماهير أو استنفارها للقيام بعمل ما إذ أن السلطة الكاملة كانت في يدها . ولم تكن في حاجة إلى إقناع الناس بالقول أو التأثير فيهم عن طريق فن الخطابة .

وهكذا مضت السنوات الأخيرة دون أن تجد الخطابة لها مكانا بين فنون الأدب . حتى الخطابة الدينية على منابر المساجد فقدت في معظم الأحيان طعمها الأدبي . ولم يعرف لها فرسان سوى اثنين أو ثلاثة من الشيوخ الذين يستطيعون كيف يستثيرون عواطف الجماهير .

ونحن الآن ، في عصر الأحزاب والحملات الانتخابية ، وحاجتنا إلى توعية الجماهير بقضايانا المصيرية ، أحوج ما نكون إلى إحياء هذا الفن الأدبي الهام . لقد افتقدنا أولئك الخطباء المفوهين الفصحاء الذين كنا نسعى إلى سماعهم ونطرب لما يبدعونه من فنون القول والتأثير بالإشارة واللفتة ودرجة الصوت وتعبيرات الوجه ، والجهر في موضوع والهمس في آخر ، وروعة الفصل والوصل ، والوقف وانتهاء الكلام . كانت الخطب كأنها حفلات غناء . ورحم الله المرحوم محمد توفيق دياب . ما سمعت أنه سيخطب في مكان ما ، إلا حرصت على الحضور والإنصات . ومتابعته في الحركة والسكنة . واستجلاء أسرار هذا الفن الوسط بين الشاعرية

والتمثيل . أين هذا مما نراه ونسمعه هذه الأيام . من لكنة ورتابة وثقل في الإلقاء . وخلط في النحو . وقصور في التعبير والتأثير . فلما وجدت وزيرا يستطيع أن يحسن الكلام . ولعل السيدين فؤاد محيي الدين . والسيد إسماعيل . هما من أبرز وزرائنا في التحدث والانطلاق . أما الأول فقد مارس الخطابة في أواخر الأربعينات ، عندما كان من زعماء الطلبة في ذلك العهد الذي أشرت إليه . أما الثاني فلا أعرف أين تعلم الكلام بهذه السهولة والسيولة والإسهاب . ومع ذلك ، فليس هذان المثالان بكافيين لسد الحاجة في مجتمعنا الجديد . لابد من نشأة جيل من الخطباء ، يحسنون مواجهة الجماهير ، ويجيدون الارتجال باللغة العربية الفصحى سليمة بلا أخطاء ، ويعرفون أسرار فن الخطابة ومد أسلاك الكهرباء الخفية بينهم وبين نفوس السامعين . أجل . إننا بحاجة إلى إحياء هذا الفن المندثر . فليس كل الكلام كلاما ولغوا تنصرف عنه الأسماع بل إن من البيان لسحرا . ولكننا نسينا فعل هذا السحر في النفوس

إبراهيم المازني

بلا أية مناسبة معينة أكتب عنه . ربما كانت عبارة قصيرة عابرة في مقال كتبه أخيرا الأستاذ توفيق الحكيم في «أكتوبر» ، قفزت به إلى ذاكرتي فقد بدأ المقال بذكرياته عن استقالته من الوظيفة الحكومية ، وفراغ وقته لا يدري كيف يقتله ، إلا في الجلوس على مقهى «ريتز» على ناصية شارعي قصر النيل وشريف .

هذه العمارة ذكرتني بأيام خلت . كنت فيها من زبائن هذا المقهى . أجلس على رصيفه الذي لا يتسع إلا لكراسي معدودة متراصة جنبا إلى جنب . وكنت أشاطر الجلوس على هذا الرصيف الضيق . كلا من الأستاذين الحكيم وإبراهيم المازني . ولم يكن أحدهما يعرفني . وما سعيت للتعرف بأحدهما . اكتفاء بما كنت أقرؤه لكل منهما

رحم الله تلك الأيام . هدوء البال وقلة الزحام . ونظافة الشوارع . ولا أريد أن أتحدث عن الأسعار . حتى لا أصدم مشاعر الناس . وكان الحكيم والمازني يجلسان في المقهى يكادان يلاصقان المارة . صامتين لا يتكلمان إلا نادرا . كأنما يرقبان الناس . وكنت أراقبهم وأراقبهما معا وفي تلك الأيام . أقيم معرض زراعي صناعي عام في أرض الجزيرة وأصدرت جريدة المصري عددا خاصا بالمعرض الدولي . وطلبت مني أن أكتب مقالا فيه . ولم أجد خيرا من أن أكتب بعض ملاحظات عابرة عن آراء من جلستي على المقهى . فكتبت مقالا بعنوان «معرض البشرية» ، تحدثت فيه عن المارة أمامي . من نساء ورجال ، كبار وصغار ، وحركاتهم وطريقة سيرهم وملابسهم وتعبيرات وجوههم وما إلى

ذلك . وكان هذا المقال ولا يزال في خاطري من أحسن ما كتبه قلمي

وكانت للمازني عندي ميزة خاصة . وحتى الآن ، أو من بأن هذا الرجل لم يأخذ نصيبه من الدنيا ، حيا أو ميتا . وإذا ما أخذت أنقب في نفسي لأعرف مصادر تكويني والمؤثرات التي أثرت في فكري وقلمي ، وجدت المازني خطرا في المقدمة . وقد هويت كتاباته منذ صغري . قرأت له إبراهيم الكاتب وإبراهيم الثاني ، ورحلة الحجاز ، وحصاد الهشيم . وغيرها من عديد الكتب التي تركها ، وما أظنها تحظى الآن باهتمام الكثيرين . وكان للرجل الطيب الوديع الدميم القصير القامة ، المصاب بعرج قليل في إحدى ساقيه ، كان له أسلوبه المميز ، الذي يصفونه بالسهل الممتنع . فإذا قرأت له ، حسبت أنه يتكلم باللغة الدارجة ، مع أنه لم يستخدمها قط ، بل كانت له معرفة باللغة العربية ، وقدرة خارقة على اختيار ألفاظها السهلة السيرة . والربط بينها في أسلوب عذب فياض بالمشاعر والموسيقى الخاصة ، والتلاعب بالضمائر وسخرية لاذعة غير مريرة ، وذكاء وقاد ، ونفاذ إلى طبيعة النفس البشرية وكان زميلا للعقاد وصديقا له ولكنهما يختلفان في الشخصية والطباع والأسلوب اختلافا كبيرا . وبينما كان العقاد معتزا بنفسه أشد الاعتزاز . كان المازني متواضعا متواريا عن الأبصار ، بقامته القصيرة ، حين يبدو العقاد عملاقا بقامته الفارعة المهيبة . ولم أكن أعيب عليه موقفه من السياسة ، بل كنت معجبا به الأدبي . فطغى هذا الشغف على ما يمكن أن آخذه عليه من عدم احتفال بالسياسة وتجريحها فقد كان في أواخر أيامه ، يكتب في صحيفتين يوميتين ، إحداهما صباحية والأخرى مسائية . وكانت الجريدتان متعارضتين في السياسة . فكان المازني رحمة الله عليه يكتب المقال السياسي في الصباح بدون توقيع . ويرد على نفسه في المساء بمقال آخر ، يفند فيه آراءه الصباحية بقدرة فائقة على الرد والتفنيد ! وقد سئل في ذلك فقال : إني كالترزي أو الإسكافي ، أقدم للناس ما يطلبونه ، وفقا للمواصفات المطلوبة ، وأجري على ذلك .

ولم يكن هذا الموقف نتيجة نفاق أو رياء أو ضعف في الشخصية ، ولكنه فيما أظن ، نظرة استعلاء واستخفاف وسخرية . وربما كنت أقول ذلك ، لأني ما أحببت أحدا من كتابنا المصريين قدرما أحببته ، وما أحسب لي من أمنية أدبية تضاهي أمنيتي بأن تطبع كتبه جميعها طبعة جديدة جيدة ، تقدم للناس ، لعل الجيل الجديد يذكره ، بعد أن نسيته أجيال ظلما أو تقصيرا !

وإذا كنت قد تتلمذت على الدكتور طه حسين في الجامعة تلمذة مباشرة شخصية متصلة ثلاث سنوات متتابعة ، فإني أعتبر تلمذتي على المازني ، دون أن أتبادل معه في حياتي كلمة واحدة ، رغم جلوسي إلى جواره صباح كل يوم ، على مقهى ريتز ، في الأيام الخوالي !

«إن المهارة نفسها، والتقنية ذاتها، اللتين ساهمتا في وصولي إلى القمر، تدخلان عاملتين في كل طائرة من طائرة دي سي - ١٠ التي تقوم ببنائها»

بيت كونراد
رائد الفضاء السابق

«بصفتي كرائد من رواد الفضاء، فقد قطعت اكثر من ١٧ مليون ميل في كبسولة الفضاء التي قامت ببنائها ماكدونيل دوجلاس. ولقد اكتشفت عن قرب كيف تعمل معداتهم بطريقة جيدة.

«وبعد مجيئي الى هنا للالتحاق بالعمل معهم، اصبحت متيقنا من هذه الثقة. حيث انك تستطيع ان تعتمد عليهم سواء كنت تريد كبسولة فضاء او طائرة مقاتلة او طائرة ركاب نفاثة. وطائرتنا من طراز دي سي - ١٠ هي افضل مثال على ذلك. اذ انها مبنية بصورة مثالية على اسس مشتركة من تقنية عصر الفضاء ودقة وبراعة الصناعة اليدوية».

«انني مقتنع تماما بان طائرة دي سي - ١٠ قد اختبرت بصورة شاملة لدرجة لم يسبق لطائرة ركاب نفاثة ان اختبرت بذلك القدر. وبجانب الصادقة التي منحتها حكومة الولايات المتحدة، فقد اجتازت بنجاح الاختبارات المرتبطة ببنائها الهيكلي وهي الاختبارات القاسية نفسها التي تشبه في مضمونها تلك التي ينظمها سلاح الطيران الاميركي في بناء طائراته المقاتلة».

«ومما هو معروف فان طائرة دي سي - ١٠ تطير الى اماكن اكثر وبنسبة اكبر من اية طائرة واسعة اخرى. اذ انها تقطع الآن اكثر من مليون ميل من الطيران في اليوم».

ان كنت ترغب في معرفة المزيد عن طائرة دي سي - ١٠ فنرجو الكتابة الى العنوان التالي:
«DC-10 Report», McDonnel Douglas,
Box 14526, St. Louis. MO 63178, U.S.A.

MCDONNELL DOUGLAS